الفصل الأول

الداعية فى معترك الحياة

الخطوة الأولى على طريق التغيير :

تبدأ الخطوة الأولى عندما يرى المسلم المنكر واقعًا . .

والتعبير النبوى الشريف بصيغة الماضى «**من رأى منكم منكرًا**» .

ربما يفيد : إذا رأى المنكر الذى تم فعلا . . وتوفرت أركانه . .

أما المنكر المتوقع . . فللداعى معه شأن آخر . . إنه متروك لحكمته التى توجه فى الإطار الإسلامى الداعى إلى الإبقاء على البيئة نظيفة . . وعدم خوض معركة فى غير ميدان .

وكذلك المنكر الذى يقتصر ضرره على صاحبه إذا ارتكبه فى الخفاء :

ولا بأس هنا من هذا الاستطراد :

١ ـ إذا وقع المنكر فعلا . . فالأمر متروك للحاكم الذى يقدر العقاب المناسب.

ويبقى دور الواعظ : عتابا يمنعه من العودة . .

٢ ـ ولكن ما هو الحكم إزاء المنكر :

أ ـ الواقع الآن .

ب ـ والمتوقع حدوثه .

• • •

المنكر الواقع :

دور الداعية التذكير والتحذير :

وكمثال على ذلك : وقوله سبحانه : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] .

١ ـ الدعوة منوطة أساسًا بالرجال فهم القادرون على تحمل مسئولياتها .

٢ ـ جاء « من أقصى » ولم يمنعه بعد المسافة .

٣ ـ ثم إنه جاء « يسعى » والسعى فى اللغة يعنى سرعة المشى .

٤ ـ فإحساسه بالمسؤولية كان حادًا وفعالاً فأرشد قومه بلا تسويف .

٣ ـ المنكر المتوقع :

يحتمل التأخير ـ اللهم إذا أحس الداعية أن فى وقوعه خطرًا لا يمكن تلافيه لو وقع .

• • •

الداعية .. والواعظ

إذا كان الواعظ محدود المسؤولية .. من حيث كان جمهوره من المسلمين مثله .. فإن الداعية يتحرك فى ميادين أوسع :

من حيث إنه يواجه المسلم وغيره : وهنا .. وهناك ..

ومن أجل ذلك .. كانت مهمته أصعب !

الواعظ .. طبيب

وما دام الواعظ يتحرك فى بيئته . ويخاطب أهل ملته .. فهو فى حاجة إلى قدر من الحيوية يحرك به الجامد .. ثم إلى قدر من الذكاء يمكنه من قلوب

سامعيه، الذين قد يرون أنه لا يقدم لهم جديداً . . بالإضافة إلى أنه لا كرامة لولى فى وطنه .

وإذن . . فما أحوجه إلى جهد مضاعف . . يهز به الوجدان :

يقول الأستاذ البهى الخولى :

[أيها الواعظ : حذار من الوعظ الجاف الذى لا حياة فيه .

وحذار من الوعظ الركيك . . المفكك . الذى لا غرض له .

وحذار أن تقف موقفًا لا تنوى أن تخرج منه بصيد .

قد يكون الوعظ السلبى ضروريًا فى وقت ما . . ولكنه على كل حال ضار فى أوقات النهضات . وإرادة التخلص من الفساد العام .

فإذا استوت النهضة على أمر الله . . وتخلصت الأمة من الفساد . . جاء دور الوعظ . السلبى . . الذى يحذر . . ويزجر . . ويمنع . . لا الذى يثير ويغير . وينقل .

وتكون مهمة الواعظ حينئذ أشبه بالطبيب ، الذى يقوم على رعاية الجسم السليم بالوقاية] (١).

ثم قال مؤكداً أهمية دوره :

[إن مهمة الواعظ هى : تغيير ما بنفوس الناس . حتى يغير الله ما بهم من فساد .

وكل وعظ لا يرمى إلى هذه الغاية . ولا يبلغ هذا الهدف . . فهو جهد ضائع . و عمل باطل . . فلا تكن كذلك .

إن الذى يقبل على الناس فى حذر وخفة فلا يمسهم إلا مسًّا رقيقا ، كما

---

(١) تذكرة الدعاة (٣٣، ٣٤) .

يخشى عليهم أن ينكسروا . . ولا يريد بما يسوق إلى الناس من قصص إلا أن يجلس الناس من حوله . ثم يخرجوا وقد أسعدهم بوقت قضاه معهم فى مؤانسة . ومتعة عاطفية بريئة . .

هذا وعظ سلبى . . لا شأن لك به .

أما رسالتك أيها الواعظ تقتضيك أن تدخل على مشاعر جمهورك فى حكمة :

فتحرك فى وجدانهم . واستثر عواطفهم إلى الله .

فإذا تأتى لك ذلك . ولانت نفوسهم لقولك . فاصنع منهم ما تشاء صنعه . . أبِن لهم عن غرضك . . وابعث بآمال قلوبهم إلى ما تحب أن يصلوا إليه . . فإنهم مستجيبون لك إن شاء الله] [١] .

• • •

الواعظ والممثل

يقول المجربون : قد يكون الممثل أشد تأثيراً من الواعظ : لماذا ؟

لأن الممثل : يجعل المتخيلَ حقيقة . . ولما كان كل إنسان له آمال يود تحقيقها . . فإن الممثل ينوب عنه فى تحقيقها . .

أما الواعظ : فقد يجعل الحقيقى متخيلا . . ولكنا نقول :

إن الممثل قد يتملق عواطف المشاهد ، أما الواعظ فهو دائن يطالب المدين بحقه !! ودعوته تدور على محور الحق أولا وأخيراً وليس فى خطته أن يتملق عواطف الجماهير .

وفى هذا يقرر الأستاذ البهى الخولى ، مؤكداً أن تحول الواعظ إلى ممثل . . يحبط عمله .

---

(١) نفس المرجع .

يقول العقاد في ذلك :

[لابد أن ينتقل الوعظ من المحاكاة إلى الابتكار . .

ويخرج من حفائر الموت . إلى ميادين الحياة .

ويخاطب الناس خطاب الإقناع ، بعد أن خاطبهم طويلاً خطاب الإلزام . .

وأن يعمم الإقناع في خطاب العقل البشرى : فلا يقصره على من يؤمن بالقرآن والسنة من المسلمين .

بل يجعله مقنعًا . . خليقًا بالبحث والنظر في رأى كل صاحب عقل وتفكير] (١) .

إلى جانب يقظته . وسرعة بديهته . وقدرته على تجاوز المفاجآت :

يعينه على ذلك : أن يفهم قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

فلا تلق التبر لمن لا يعرف قيمته وقد تتعب نفسك . فتكون على غاية ما يكون الوضوح . . ولكن خصمك جاحد معاند فتلمس جذوره أولا :

فإن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فعظه . . وإلا . . فلا .

لا تلق التبر لمن لا يعرف قيمته !

والمقدمة . . وتبقى المقدمة مدخلاً لابد منه . . لماذا ؟ قد يكون شعورك مرهفًا . . لكن المستمع ليس كذلك فارفعه إلى مستواك . .

بمقدمة ، تشوقه . . تفتح مشاعره لك . .

إن المشاعر بيوت مغلقة . . وكما أننا مأمورون بالاستئناس قبل دخولها . . فكذلك المشاعر . .

---

(١) الرسالة (٤/ ٣٢٩) .

فوجئ الشيخ [١] يومًا بموقف حرج .. فماذا صنع ؟ يقول :

[ودعيت إلى إلقاء محاضرة فى هذه الكلية ، فلم يرد أن يقدمنى إلى السامعين على العادة فى مثل هذا الموقف ، وأحسست كأنه كره أن يعترف أمامهم بأنه كان تلميذى .

فكان جوابى على ذلك أننى بدأت المحاضرة بحمد الله على أن جعل من تلاميذى الذين كانوا يقعدون أمامى ، من صار أستاذًا كبيرًا ، أو عميدًا فى كلية ، أو قاضيًا فى محكمة ، وأن منهم فلانًا ، وأشرت إليه ، ليعلم الناس جميعًا أنه كان من تلاميذى .

ما أردت من ذلك التعالى عليه ، ولا أردت الفخر بأننى درسته ، وليس ذلك من شيمى ولكنى وجدته لا يزال بحاجة إلى درس آخر من الدروس التى كنت ألقيها عليه وعلى إخوانه ، فألقيت عليه هذا الدرس فى الوفاء وفى كرم الأخلاق] .

ثم استطرد الشيخ قائلاً : [قرب تلميذ فاق أستاذه . عمل الأستاذ يا أيها القراء مثل واد بين جبلين ،فى وسطه جدول صغير ، لا يستطيع السائح أن يصل من جبل إلى جبل حتى يقطع الجدول ، وليس على الجدول جسر يجتاز الناس من فوقه ، فقام عليه من يجيز المسافرين ، ينقلهم من ضفة إلى ضفة حتى يصل بأحدهم إلى الجانب الآخر، ثم يؤم الجبل صُعُدًا ، فيبلغ منهم ناس عاليه وهو لا يزال فى مكانه .

هذا مثال الأستاذ ، فإن أنا قلت إن فلانًا وفلانًا كانا من تلاميذى فإنما أعنى السبق الزمنى التاريخى ، ولست أعنى أنهم يبقون التلاميذ دائمًا وأبقى الأستاذ دائمًا] .

• • •

(١) المرحوم الشيخ على الطنطاوى

الداعية ... والفنان

تمهيد :

يقولون : هن أخوات ثلاثة :

العلوم . . والفنون . . والسلوك .

فأما العلوم . . فقانونها : الحق .

والفنون . . فقانونها : الجمال .

وأما دنيا السلوك . . فقانونها : الخير .

وعلى رءوسهن تقوم الحضارة . . كما يقوم المثلث على أضلعه الثلاثة . . تلتقى الأضلاع على الرءوس . . ولكنّ واحداً منها لا يلغى الآخر] (١) .

• • •

مسئولية الداعية

فى حياتنا مجموعة من الفنون وعليها تدور حياتنا . . من زراعة . . وصناعة . . وتجارة . .

وهى تبدأ أولا عملية . . ثم تنشأ عنها قواعد . . تصير علما يُستودع كتبًا . .

والفن . . هو العنصر الأول . .

والفنون قسمان : مفيدة . . مثل الزراعة والصناعة . . وجميلة كالحديقة يصفها مفتون بجمالها فيقول : رأيت حديقةٍ غناء . . وهكذا الرسام . .

موقف الأديب :

ولكن الأديب حين يصفها بعين خياله . . فإنه ينقل إلينا إحساسه بها . . فكأنما نعيش فيها : نستروح نسيمها . . وننشق عبيرها .

---

(١) مجلة الهلال . سبتمبر ١٩٧٠م . د . زكى نجيب محمود

والجمال . . والفكرة من عناصر وجود الأديب وهما وسيلتاه لإبلاغ ما يريد . .

أما الموسيقى . . فإننا نستمتع بمعزوفته . . وإن لم نفهمها !!

ألا إن المعانى معروضة فى الطريق . . وكل إنسان يعبر عنها بأسلوبه الخاص . .

وقد لا يكون لواحد منهم دين يعتنقه ويصدر عنه . . ولكن ذلك لا يمنعه من الوفاء بحقوق وظيفته . .

وظيفة الداعية :

ودون هؤلاء جميعًا يأخذ الداعية موقعه الريادى القيادى . .

وإذا كان هؤلاء يخاطبونك . . ثم لا يدعونك . . فإن الداعية دونهم جميعـًا . . يدعوك . . ويدعوك . . إلى الدين القويـم . . وما يثمره من خلق كريم .

أما الذى يدعوك إلى الحقيقة العلمية الكونية أو الفنية فوظيفته تنتهى عند : مجرد البلاغ .

أما الحقيقة الدينية : فبلاغ . . ثم مطالبة بالعمل بها .

ومن هنا كانت أهمية المسؤولية المنوطة بالداعية .

الإحساس بالمسؤولية من أسس السعادة فى الإسلام . . وعلى هذا الأساس قامت نظرية الإسلام التربوية التى طلبت الاعتماد فى السعى على الإيمان والعمل الصالح .

• • •

إمكان المصالحة بين الفن والدعوة

أجل .. فى الإمكان التكامل .. بدل التقاتل .. لنتعاون فيما اتفقنا عليه .. بدل أن تذهب طاقاتنا أباديد ..

وفى تاريخنا شاهد على إمكان هذه المصالحة .. أو هذا التواصل والتكامل .

قال المتنبى :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

ويا ليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

إذا صح منك الود .. فالكل هين ... وكل الذى فوق التراب تراب

وقد أخذها « الصوفيون » فترنموا بها .. وحجتهم أن الأحق بذلك هو الله عز وجل .. وليس الخليفة ..

والسؤال الآن :

لماذا لا نوظف « الفن » لخدمة الدعوة ؟

إن فى الحياة قيمًا أخلاقية .. يؤمن بها كل البشر .. فلماذا لا نتعاون على التمكين لها فى قلوب الناس ؟؟ وتلك مسؤولية الدعاة .

• • •

هذا أوان الجد

ألا إن لحظات الخطر أقدر على جمع شمل الأمة أكثر من لحظات السرور .. وليس هناك خطر أكبر مما يتهدد أمتنا اليوم فلابد من أن نتحد فى مواجهة الخطر الداهم ..

لقد عرفت أجسامنا معنى التكيف .. احتفاظًا بسلامتها فكيف تغيب عنا آيات الله فى أنفسنا ؟

كيف لا نتحد . . وكل ما حولنا يعزف لحن الوحدة . . حتى يبقى ؟!

ومن إشارات بعض الباحثين هنا :

أجسامنا . . لا تخلط بين العدو . . والصديق .

ميكروب « التيفود » يستطيع قتل ميكروب « السيلان » إذا وجدا فى جسد واحد ؛ لأن التيفود يرفع حرارة الجسم . . إلى حد يقتل ميكروب السيلان .

ولكن : هل يقبل الجسد المصاب بالسيلان . . أن يدخله التيفود . . ليخلصه منه ؟ كلا . .

لأن التيفود يعيش بالتهام خلايا الأمعاء . . فوجوده مدمر . . ولا يمكن أن تقبله لمجرد أنه عـدو عدوها . . ما دامـت مصالح هـذا التيفود متناقضة مع أجسامنا . . وحياتها مرتبطة بالقضاء عليه . . وحياته مرتبطة بالقضاء عليها !

ومع هذا . . فالأجساد على وفاق مع ميكروب آخر . . يعيش فى المعدة يلتهم بعض الفضلات التى لا يستطيع الجسم هضمها . . فالجسم يستفيد منه . لأنه يخلصه منها . . وأيضًا يفرز مادة يتغذى بها الجسم وهو يستفيد من الجسم .

أجسامنا تفهم من هو الصديق . . وهو ما تتفق مصالحها معه . . وتفهم أن عدوها من تتناقض مصالحها مع مصالحه . .

ترى : لماذا لا تفهم عقولنا ما لا تفهم أجسامنا ؟!

ليكن معلومًا بالضرورة أن الإسلام لا يحرم الفن . . وإنما يحرم الرذيلة .

[فالفن الملتزم . . ينمى المشاعر الإنسانية ويحضنا على المحاسن . . أما أن تتحول المرأة المسلمة فى محراب الفنون مثلا إلى صديقة لرجل أو عشيقة لآخر وخادمة له تحت شعار الحب والهيام . . وتتفشى عندنا الغواية ؟؟ فأين الشرف . . والعفاف . . والعرض المصون الذى يسجله الغرب لنا ويود أن ينقله إلى رحابه ؟!

لقد خلت بلادنا من الفاحشة قرونًا طويلة رغم انتشارها فى المجتمع الغربى

بشكل طبيعي . فهل تعود إلينا مع أبناء رذائل الحضارة الغربية المرموقة ؟

والشعر .. والنحت .. والتمثيل .. والموسيقى .. وغيرها من الفنون الراقية لا يعاديها ديننا .. ما دامت قد تجردت مما يسيء إلى العقيدة ..

فقد مارس أبناء الإسلام كافة الفنون في تعبيرها عن النفس البشرية .. وأبدع بنوه أشكالا متنوعة من الشعر والموسيقى والتصوير والنحت والرسم والعمارة .

وكان ذلك أبلغ تعبير عن هوية وذاتية عريقة عريضة اتسعت لكل الخصوصيات الحضارية للأجناس والأمم . التي دخلت في دين الله وتباركت بسنته .

والإسلام لم يمنع الصورة ولكنه منع تقديسها . ولا يحرم السينما والفيديو مادامت النية في استخدامها خيراً .

إن الفن ليس عيبا .. وإنما هو .. علم مفيد للناس .. إذا كان يحمل رسالة مضمونها أن ترتقي بالحياة إلى الأفضل .

وهو يكون كذلك إذا لم يتعارض مع القيم وحث على الفضيلة والطهر .. وأسهم في حل المشكلات .. وميز الخبيث من الطيب] ؟! [1]

• • •

بل الداعية .. أسعد حالا

يقول واحد من فلاسفة الغرب : [إن القدر الأكبر من سعادة الإنسان إنما ينبع من داخله هو وليس من الظروف المحيطة به] .

ألا وإن الفلاح البسيط .. يرى من كوّة جداره الشمس ضياء والقمر نوراً .

ومن خلال هذه الكوة نفسها تهب عليه نسمات تحمل إليه عبق الزهور ..

---

(١) عن كتاب : المسلمون وتقليد الأجانب (٢١٧) للدكتور عاصم عجيلة .

بينما جاره الغنى فى قصره لا يحس بذلك .

إن السعادة ليست فى المكان . . وإنما هى فى داخل الإنسان .

والإنسان بالدرجة الأولى هو : الداعية التى لابد أن يرضى بما قسم الله . . . وإن بدا غيره أوفر مالاً .

إن الثروة العقارية . . تنهار .

والثروة المالية . . تضيع .

ولكن الثروة الأخلاقية باقية .

[فلنتأمل هذا القصر العالى . . يتولد على مدخله الليل والنهار . . كيف تعاقب عليه سلطان بعد سلطان . . بكل ماله من أبهه عاش ساعته الموعودة . . ثم مضى إلى غايته . . إن الباب الذى دخلنا منه هو الباب الذى سنخرج منه . . ولو كنا قد جئنا كالماء . . فإننا سنمضى كالريح . .] .

لكى يبقى الداعية سعيداً :

أيها الدعاة . . هذا قدركم . .

إن أمتكم آخر الأمم . . وأنتم آخر أمتكم . . تسوقون الناس . . والساعة تسوقكم والساعة أدهى وأمر . .

والمنتظر أن يلحق الآخر بالأول .

لن تنالوا ما تحبون . . إلا بترك ما تشتهون . .

ولن تنالوا ما تأملون . . إلا بالصبر على ما تكرهون . .

تتأتى الأمور بالصبر . . والمستعجل . . ينقلب . . وينكبّ على رأسه .

ورأيت بعينى فى البادية : أن المتأنى أحرز السبق على المعجلين .

وقد عجز الجواد السريع من شوط . . وكان الجمّال ما زال يسوق على

مهل!!

فيأيها الدعاة . . تريدون إدراك المعالى رخيصة ؟!

لابد ـ دون الشُّهد من إبر النحل .

تقدموا . . والمستقبل لكم . . وليراجع الأحفاد صحائف الأجداد . . مراجعة يجدون بها ما أبْلت الأيام من قوانا .

ولكم فى أهل الكهف أسوة حسنة . . ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ [الكهف: ١٠]

والشاب الناشئ فى عبادة الله عز وجل يساوى « الإمام » أى : رئيس الدولة العادل .

وربما كان هناك من يسأل . . ما للدعوة والفن .

وبالتالى . . ما للفنان والداعية ؟!

وأبادر فأقول : كان الفنان زمان . . كان يسمى شيخًا . .

الشيخ سيد درويش . الشيخ زكريا أحمد . .

وأخيراً : الشيخ سيد مكاوى . .

بعد هذا التمهيد نتساءل . . ما الذى نريد أن نقوله تحت هذا العنوان ؟

والجواب : أننى فى رحلاتى . . ومن خلال مشاهداتى كنت أسمع هجومًا على الفن ولكنى كنت أرى كثيراً من الإيجابيات فى حياة الفنان . .

وعلى كثرة ما يحصيه الناس من سلبيات تجعل من حياة الفنان سبهللا . . إلا أننى حاولت اختراق هذه الحياة . . لأسجل بعض الإيجابيات . . التى يحق بسببها أن يقول الفنان إنه : يخدم بها نفسه وأمته .

ثم لأنتهى إلى هذا السؤال : ماذا على الداعية أن يفعل . . ليدعى حقًا أنه يخدم دعوته ؟

وماذا فى حياة الفنان مما يمكن أن يكون له فيه قدوة وأسوة ؟!!

من إيجابيات حياة الفنان

أ ـ قوة الإحساس بالفكرة . . والحماس لها .

ب ـ عندما يفرض الفنان احترامه على من يريد استغلاله مجانًا .

جـ ـ وجود المستمع .

د ـ التضحية فى سبيل المبدأ .

هـ ـ إعداد الولد ليكون امتدادًا لأبيه .

و ـ أهمية « الديكور » فى التمكين للفكرة .

ز ـ استغلال الفن فى عملية الإصلاح الاجتماعى .

ح ـ الاندماج فى الدور .

قوة الإحساس بالفكرة :

كان « عبد الوهاب » يعيش فى الأحياء الشعبية أيامًا . . قبل أن يصوغ اللحن الجديد !

لينتهى إلى قوة الإحساس بما يريد عمله . .

ثم ليكون أقدر على التعبير عنه . . بل التأثير فى غيره . . وإلا . . فإنه وفى غياب الإحساس . . كيف يؤثر فى الناس ؟! إنه لا يؤثر إلا المتأثر .

إن « الديوث » لا يحسن الكلام عن العرض .

وإنما الإنسان الحساس . . الشاعر . . الذى ينقل شعوره إلى الآخرين . . وإلا فهو مجرد وزّان !!

ذكاء الفنان :

كان « الرسام » يبيع لوحاته فى نفس المكان الذى يرسم أحد مشاهده .

obeikandl.com

وكان ذلك أدعى إلى تزاحم سكان هذا المكان .. ليتزاحموا على لوحاته .. التى تصبح ذكرى عزيزة لديهم ..

وبذلك استطاع أن يتملق عواطفهم لتسويق بضاعته !

وقبل ذلك كان يرصد الواقع بدقة .. لتجىء لوحته طبق الأصل تمامًا .

وقد عانى فى سبيل ذلك ما عانى ..

ومن أمثلة ذلك :

أنه أراد أن يرسم زورقًا فى يوم عاصف .. فطلب من « البحارة » أن يربطوه بساريته .. ومكث على ذلك أربعة أيام حسومًا .. أحاط فيها خبرا بكل دقائقه !

العمل فوق العواطف :

فى مذكرات الفنان « يوسف وهبى » يرحمه الله : أن أمه ماتت .. لكنه وبعد نصف ساعة من رحيلها كان على خشبة المسرح يؤدى دوره .. مستعليًا به فوق آلامه وكذلك فعل زميله « استفان روستى » .

ولم يكن حب العمل هذا حكراً على الرجال .. ولكنه كان كذلك عند النساء فقدت الابنة البكر للفنانة « علوية جميل » .. وكسرت ساق زميلتها « نجمة إبراهيم» ومع ذلك .. فقد كانتا حريصتين على أداء دورهما .. كأن شيئًا لم يكن !!

وقد أسمع من يقول : وهل كان حرصهم على مواقيت الصلاة وأدائها .. على نفس المستوى .. ولكنى أقرر .. أننى أترك ذلك لهم .. فلا أحاسبهم على أمر بينهم وبين الله عز وجل .. غير أنى فقط أؤكد على قيمة « حب العمل » وكيف كانت فوق مستوى العواطف الشخصية ..

وفى بيئة محكومة بهذه العواطف .. تبصرة وذكرى لكل مقصر فى عمله من دعاة الحق ..

ولكن الذى نقوله هنا : أن للدعاة فى هذا الباب .. ما يأخذ بالألباب ..

مات لأبى يوسف ولد .. فلم يغادر الدرس .. وترك الجيران يدفنونه ! وبقى فى درس شيخه أبى حنيفة !!

وكان « القزوينى » يلقى درسًا كل يوم ومعه ابنه « محمد » وذات يوم .. لم يحضر معه .. لأنه مات .. فلما أُخبر فى الدرس .. لم يظهر عليه تأثر وقال للناس : إن محمداً دُعى فأجاب .. فمن أراد الصلاة فليحضر ..

الفنان يفرض احترامه:

فرض ممثل المسرح احترامه على من طلبه .. فقد رفض مواصلة التمثيل .. حتى يأخذ بقية أجره .. والذى يحدده هو !!

وذلك واحد من قوانين الاقتصاد .. والذى عبر عنه صاحب « مكتبة » فى «تلا » حين قال لى : لا أستطيع بيع كتبك كما تريد بثمن تكاليفها فقط لأن العرض الرخيص من شأنه أن يزهِّد الناس فى السلعة !!

وقلت له : وكان التاجر فى قريتى يرفض المساومة على السلعة بعد أن حدد ثمنها الغالى .. وكان يقرر معتزًا إذا لم يدفع فيها الثمن .. فسوف يلقى بها فى البحر !!

وفى مجال الدعوة شىء من هذا القبيل .. ونذكر هنا قوله عز وجل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المجادلة: ١٢] .

وربما جاز لنا أن نقول : إنها بالإضافة إلى أن التصدق دليل على الصدق .. فهى من ناحية أخرى .. تخفيف من الله عز وجل حتى يتفرغ ﷺ للبلاغ ..

وربما يذكرنا ذلك بما يفعله الطبيب اليوم من المبالغة فى ثمن « الكشف » إرادة التخفيف من حدة الزحام .

وربما كان ذلك واحداً من الدروس فى حياتى .. فقد تلح أطراف كثيرة فى دعوتى لإلقاء درس .. لأننى لا أكلفهم أجراً ... فهم من مغرم مثقلون .. وكان لابد من المطالبة بهذا الأجر .. على الأقل لأتمكن من أداء مهمتى فى حدود إمكاناتى .. وليكون للفقراء فيه نصيب !!

وجود المستمع :

يقول عبد الوهاب : لا يكفى .. كلمات .. ولحن .. وصوت .. ولكن .. لابد من مستمع ..

وقد يكون شاهداً على صحة ذلك .. ما أراه أحيانًا من احتشاد المستمعين .. وما يشير إليه من رغبة فى الاستماع .. ثم ما أراه أحيانًا ..

حين يكون « المدرّج » واسعًا .. والطلاب فيه مجموعات متفرقة .. مجرد « بقع » تعطيك معنى الملل .. والزهد فيك .. وفيما تقول !!

عندما يجد الفنان نفسه :

كان الفنان حريصًا على أن يكون ممثلا مسرحيا .. لماذا ؟

لأن جمهور المسرح معه : يسمعه .. ويراه .. بخلاف جمهور « السينما ».

ومعنى ذلك أنه منطلق من سنة نفسية هى : أن نشاط المتكلم وعطاءه .. إنما يتم على قدر إقبال السامع عليه ..

ولما كان مُشاهد المسرحية يرى ويسمع .. فهو أكثر إقبالاً .. وبالتالى أكثر عونًا للممثل على مزيد من العطاء والتوفيق .

وفى هذا المعنى يقول الشيخ « على طنطاوى » :

[وكلما جلت المناسبة ، وكثر السامعون ، وكان بينهم أهل الفكر والعلم

والمنصب ، جادت خطبة الخطيب ، وزادت بلاغته ، وانجلى بيانه ، وهذا الذى يرهب غير الخطيب ، ويمنعه أن يعتلى المنبر ويكلم الناس ، هو الذى يرغب الخطيب المتمرس ، ويدفعه إلى الكلام ، ولو أنى حين أتكلم وحدى فى الإذاعة ، فتنقل كلامى إلى عشرة ملايين أو يزيدون . لو أنى على منبر أرى أمامى عشر معشارهم ، أقوم بينهم ، أخاطبهم وأنا أراهم . . لو كان ذلك لسمعتم منى غير الذى تسمعونه الآن حين أتحدث فى الإذاعة أو الرائى] ا. هـ .

اختلاف الأمزجة :

وبعدما صار الفنان « ممثلا » مرموقًا . . قرر أن ينقل نشاطه إلى « الشاشة البيضاء » (السينما) بدل المسرح . .

فلما سئل عن سر هذا التحول قال : رواد « الشاشة البيضاء » شعبيون . . فهو متجاوبون معه . .

أما رواد المسرح: فهم من الطبقة الأعلى . . ويحتاجون إلى خطاب خاص. .

ولنا أن نقول : وللناس فيما يعشقون مذاهب !!

التضحية .. فى سبيل الدور :

لقد قبل الممثل « أحمد زكى » أن تجرى له فى وجهه عملية جراحية تجعله أشبه « بجمال عبد الناصر » الذى قرر أن يمثل دوره فى الحياة .

بل إنه كان يرفض أن يناديه أحد : « يا أستاذ أحمد » ، بل : يا ريس . . ليمكنه وعلى المدى الطويل من أن يتقمص شخصية الرئيس !!

إعداد الولد :

« بيكاسو » الرسام . . كان والده مدرسا للرسم ، وكان مدرسًا مغموراً .

وكان ولده « بيكاسو » وهو صغير. .كان كلما بكى وضع فى يده «فرشاة» . . فصار رسّامًا . . عالميا . . ومليونيراً .

وبذلك يعايش الطفل « جو » الفن .. الذى تتنامى فيه موهبته ويكمل استعداده ..

ومن المفيد أن نذكر هنا ما قاله المرحوم « ثروت أباظة » : كنت تلميذًا للفنان التشكيلى « صلاح طاهر » ولكنه مع نبوغه فى فنه لم يجعلنى رسّامًا !!

الاندماج فى الدور :

يقول الفنان معبراً عن تمثله دوره تمامًا .. وكيف كان عمله جزءًا منه : [إن الرسام يرسم اللوحة وإذا رأسه يطل منها] ا. هـ .

وكان الفنان يحب الموسيقى .. ولكنه أثناء عمله: يفضل أن تكون الموسيقى من ذلك النوع الخفيف .. والذى لا يأخذه من عمله .. من فنه بعيداً بعيداً .

لأنه مستغرق فى عمله ولا يحب النغم القوى .. الذى يشجيه حتى لا يسترخى .. فتهتز « الريشة » فى يده !!

بل إنه ليعتذر إذا دعاه داع بالهاتف .. لأن الكلام ينتزعه من دوره الذى لن يتم لو رد على طالبه !

تحدث « مخرج مسرحى » فقال : إذا كان الجو مرحًا .. كانت الظلال كذلك .. صارخة .. متنوعة .

وإذا كان الجو جادًا .. كانت الظلال قاتمة .. بمعنى :

أن الجو الذى تنطلق منه الكلمة له آثاره .. فى الإقناع .

وقد عكف « الموجى » سنة كاملة ليلحن « قارئة الفنجان » وحبسه عبد الحليم خمسة وأربعين يومًا لينجزها !!

الفن والإصلاح الاجتماعى :

الشاعر « محمد مصطفى حمام » كانت له موهبة فى تقليد الأصوات ..

(تمثيلها) ولقد استغلها فى الإصلاح بين الناس . . كانت بين « العقاد » وبين « محمد توفيق دياب » خصومة .

فاتصل الشاعر « حمام » بالعقاد مقلداً صوت « دياب » واعتذر له . . ثم اتصل بدياب كذلك . . وتم الصلح بين القمتين .

وأخيراً ...

فإن الفنان يحاول أن يثبت وجوده دائمًا .

ذهب « بيتهوفن » ليعزى صديقًا له فى وفاة ولده . . فعجز لسانه عن الكلام. فعبّر عن حزنه بأصابعه على أوتار « البيانو» فكانت مقطوعة الحزن المعروفة .

ولنا هنا تحفظ ...

أشار « عبد الوهاب » إلى رأس الفنان لما غضب يومًا . وقال قد يأخذ الله من هنا مشيراً إلى رأس الفنان قد يأخذ جزءاً يسيراً . . ثم يضيف إلى « الصوت » أضعافًا ؟

ولكن الداعية إن لم يواجه جمهوره بكامل عقله . . فلن يفلح معه عوض .

وإذ يغنّى الفنان حريصًا على أن يكون من حوله مئات من أنواع الزهور . . فإن الداعية يمارس وظيفته فى أصعب الظروف . . فقد يحمل واحد حذاءه ثم يمضى مخلفًا فى حلق الشيخ شجى ومرارة !!

ومع ذلك فهو مكلف أن يقول . . وأن يقول شيئًا مقبولاً !!

• • •

خطورة دور الفنان

الفنان له إلى الكون نظرتان :

الأولى : تأمل الجسم الذى بين يديه .

والثانية : استنباط ما فيه من عبر ودروس .

إنه لا يقف عند السطح : عند النص . . ولكنه يغوص فيه ليستخرج ما وراء السطور . .

فإذا كان الفنان مغنيًا تضاعفت خطورته . . ذلك بأن للصوت الجميل تأثيره العميق . . حتى قالوا : إن الصوت الجميل . . يأخذك منك .

وفى النهاية . . يعيدك إليك !! وفى تعبير لواحد من الوالهين . . قال : سقونى . . وقالوا : لا تغنّ . . ولو سقوا جبال شَرْوى ما سقونى . . لغنَّت !!

وعن خطورة الأغانى : يقول عز وجل : ﴿ **وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ...** ﴾ [الإسراء: ٦٤] .

فالكلمة المغناة لها أثر خطير من حيث اشترك فيها : مؤلف ، وملحن ، ومغن .

كلهم متميزون . . وكل فى تخصصه .

ولهذا السبب قال « نزار قبانى » : لم أشتهر إلا بعد أن غنت لى « نجاة » «أيظن » .

ويا ضيعة عشرين ديوانًا !! أو كما قال !!

ومع هذا : فالفنان . . إنسان . . والفنانون إخوة .

قصارى ما فعله « عبد الوهاب » لما لحن لأم كلثوم . .

لم يكن ناقمًا ولا حاقدًا .

وإنما قصارى ما فعله أنه ركَّز فقط على عنصر « الموسيقى » .

حتى إذا استمع الناس إلى أم كلثوم يتحدثون لا عن صوتها وإنما عن «الموسيقى » وهكذا تكون المنافسة الشريفة . . والتى تضيف إلى الفكرة رصيدًا من

التميز والجودة .

وفيه عنصر الخير : لما غنى « محمد عبد الوهاب » « الدنيا سيجارة وكاس » هاجمه واحد من الأئمة قائلاً : إن أباه « شيخ » وكيف يفعل ذلك ؟!!

وسارع عبد الوهاب إلى الإمام مقسمًا أنه ما شرب لا هذه .. ولا تلك .. والكأس التى يتغنى بها هى كأس « عرق سوس » عند الحاج على .. وليست من عند الخواجة !!

ونسى الإمام أن يقول له : ولكنك بهذا تحرّض الناس على الشراب !!

ورحم الله الوالد الذى منع ولده من شتم « كلب » حتى لا يتعود لسانه البذاءه.

أما فى الإسلام فلقيمة العفة مكانتها .

لحق الصحابة « بالظعينة » : فتشوا رحلها .. فلم يجدوا الرسالة .. فهددوها بتفتيشها .. فغارت على عرضها .. وقالت : حوّلا وجهكما عنى !!

ثم أخرجته من عقيصتها ! وهكذا .. خافت على عرضها .. بينما هى مشركة .

وذات يوم .. وجدوا عجوزًا تركب بعيراً .. ومعها مزودان ..

وكانوا قد خرجوا يبحثون عن ماء للرسول ﷺ فى غزوة ..

فسألتهما .. لما أخبروها عنه: أهذا الصابئ ؟!

ثم جاءوا بها للرسول .. وأناخوا بعيرها .

فأخذ من كل مزود قدرًا من الماء فى إناء . وقرأ عليه . ثم رده فى المزادة . وقال : اسقوا دوابكم .. واشربوا .. وتوضؤوا ..

ثم موّن الجيش من المزادتين اللتين بقيتا كما هما حتى قالت : إنهما والله

لأشد امتلاء من ذى قبل .

وكان المسلمون يغيرون على جيرانها إلا على حيِّها ولم يكن به مسجد ولا أذان ـ إكرامًا لها . [وكان ﷺ إذا بيت لقوم : تسمَّع الأذان . فإن سمع ، كفّ].

وقال ﷺ: « **اجمعوا لها** » فجمعوا لها من التمر .. ثم عادوا بها إلى حيّها مكرمة .

فقالت لقومها : لقد جئت رجلاً :

لئن كان ساحرًا .. فهو أكبر السحرة .. وإن كان نبيًا .. فهو صادق ..

وقالت : أرى الناس ـ تعنى المسلمين ـ يغيرون على من حولكم .. دونكم.. فأسْلَمُوا .

وفى بلد أوروبى : (فى لندن) دخلت فرقة موسيقية أحد المساجد .. ثم بدأت تعزف فى القبلة !

وتقدم المسلمون بشكوى إلى القاضى الذى حكم بأن يدرس هؤلاء الفنانون الإسلام على مدى ستة أشهر .

وتم ذلك فعلا .. فأسلم منهم أربعة !!

ولكن قنوات الإعلام .. فى خدمة الفن ؟!!

قنوات الإعلام المعادية .. كأنما هى كلاب مسعورة .. تمثل كل منها مذهبا من المذاهب تروج له .. وتدعو إليه ..

وعلى الداعية أن يكون حذرا .. حتى لا يكون نهبًا لها .

وبعض قنوات الإعلام فى خدمة الفن الذى يتملق عواطف الجماهير وغايته فقط : الإثارة ، وخاصيته النفُور من كل ما فيه رائحة الإسلام . وقد تشاهد برامج ترفيهية تزاحم البرامج الجادة وتحتل أرضها .. وبلا مقاومة تذكر ..

وهكذا يتحول الإعلام المعادى إلى ثعبان أسود .. لا يهدأ حتى يفرغ سمّه فى جسم برىء ..

ثم نتساءل عن « سامرى » العصر ؟ ماذا يريد ؟!!

أ ـ يريد ـ كأخ له من قبل ـ أن يصنع لنا عجلا !! فماذا نحن فاعلون ؟

أن نتأمل ما نرى .. ثم لا ننعزل عنه . حتى لا يتمدد فى الفضاء الرحيب وفى غيابنا .. ولا بأس من أن نفيد من إيجابياته .. ليكون للدعوة حضور مكثف ..

إننا إن لم نهزم اللهو .. فإننا على الأقل نكسر من حدته .

خطورة القمر الصناعى

يدخل بيتك .. وبلا استئذان .. ليؤثر فيك .. لا اقتصاديًا .. ولكن عقائديًا .. عن طريق برامج ترفيهية .. وأثناءها تضرب العقيدة ..

ووقع الغافلون .. أو المغفلون فى الشرك .. وكانت هناك موانع صواعق من آى القرآن .

من مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٧٣] ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم ﴾ [البقرة: ١٠٩] .

والحل الإسلامى :

١ ـ تأصيل حقائق الدين والكشف عن وجه الإسلام الإيجابى تحصينا للمتلقى.

٢ ـ تنمية الإحساس بخطر التبشير عن طريق جهاز متخصص .

إنه الاستعمار الأجنبى :

أ ـ يضحى بالقادرين من أهل مستعمراته ليبقى هو .

ب ـ ينهب خاماتها . . ثم يصنعها ويبيعها لها بأغلى ثمن .

جـ ـ قد يبيعها أسلحة ولكن بدون قطع غيار .

د ـ يصدر أدوية منشطة . . وهى قاتلة ببطء فى نفس الوقت .

هـ ـ إعلام موجه لزعزعة العقيدة .

و ـ الويل للمغلوب من الغالب .

أما فى الإسلام :

١ ـ لا يقاتل المسلم إلا من قاتله .

٢ ـ يدعو المحارب قبل القتال إلى الله .

٣ ـ يرفع أول جثة إسلامية تنزف دمًا لعل العدو يرتدع . . فلا يكون قتال .

٤ ـ لا يقتل طفلا ولا امرأة ولا شيخًا ولا غلامًا ولا يقطع شجرًا .

٥ ـ لا يؤخذ برىء بمذنب .

٦ ـ يفى المسلمون بعهودهم .

حتى وإن أمَّن أحدهم قومًا وفوا « ... **يسعى بذمتهم أدناهم** » .

ثم نقرأ لواحد من الباحثين قوله مؤكدًا هذا الخطر الذى يجب أن يُتقى ويحذر:

[إن نظرة واحدة حولنا . . ليس فى مصر فقط بل فى معظم البلدان العربية والإسلامية . . تفاجأ بأن هناك بدعا جديدة لم نعرفها من قبل . تفاجأ بأن هناك ظاهرة الاستسلام لعالم الرغبات والشهوات والسلع الاستهلاكية والترفية والعرى . . تفاجأ بأن هناك ظواهر مستحدثة تقود المجتمعات الإسلامية إلى الإصابة بأمراض اجتماعية ليس لها علاج!!

وليس صحيحًا أن هذه الظواهر المستحدثة مستوردة من الحضارتين الغربية أو

الأمريكية . . وإذا اعتقدنا ذلك ، وحاولنا ترويج مثل هذا المفهوم الخاطئ فإننا أشبه بمن يبيع سلعا مغشوشة يخدع بها المشترى ثم يسخر من عقليته بعد البيع . . لقد أمضى الغرب أربعة قرون فى بناء حضارته الحديثة ، وشيد الحصون العلمية التى انتقلت به إلى عالم آخر . . عالم التقنية الحديثة والتكنولوجيا ، وفتش الغرب فى كل علوم العلم والمعرفة . . وطورها . . وأخذ منها ما يتناسب مع بناء حضارة قوية تقول للعالم « نحن هنا » والحضارة الأمريكية لا يزيد عمرها على مائتى عام وبضع سنوات ، وقامت على أكتاف جنسيات مختلفة فى الدين واللون واللغة . ويقال : إنها قامت على أكتاف أكثر من ثمانين جنسية عبرت المحيط الأطلنطى للوصول إلى أمريكا ، وأصبحت الولايات المتحدة الأمريكية . . أصبحت الشرطى الوحيد فى العالم . . ليس بفضل قوتها العسكرية فقط ولكن لأنها تملك مفاتيح التكنولوجيا والتقنية الحديثة فى الصناعة والزراعة والاقتصاد والفضاء ، إلى آخر شتى مجالات الحياة !!

هذه الشعوب لم تعربد . . ولم تسكر حتى الثمالة . ولم تسىء استخدام معنى الحرية . . والحرية عندها ليست إباحة . . أى افعل ما أشاء ! هذا غير صحيح . . الحرية هناك لها حدود لأنها فى ظل منظومة يعيش فيها الفرد وسط الجماعة ، والجماعة تعيش داخل دولة ، والدولة تعيش داخل قارة . . وهذا مثلا أدى إلى قيام الاتحاد الأوروبى . . ومن قبله السوق الأوروبية المشتركة وجرى توحيد العملة بين دول القارة ، وإقامة برلمان أوروبى مشترك . . وهذه المؤسسات . . لم تأت من فوق بل جاءت من الفرد ، وقامت عليه لأن هناك انتماء حقيقيًا للبلد . . ولا علاقة له بالشعارات .

وهناك واقعة بسيطة جدًا . . أرويها إذا جاءت المناسبة ، كنت فى زيارة إلى مدينة فرانكفورت الألمانية . وتوجهت إلى أكبر محل تجارى لشراء بعض الملابس ؟ ورحت أسدد الحساب وقدمت لعاملة الخزينة دولارت !! وفوجئت بها تقول : «لو سمحت . . إذا قمت بتغيير العملة خارج المحل فسوف تحصل على سعر أفضل

منا ، وفهمت أن سعر التغيير فى المحل التجارى أقل من سعر التغيير بمحلات الصرافة بالخارج .. ولم أفكر لحظة وطلبت منها تغيير العملة لإعجابى بأمانتها الشديدة ! .. ومثل هذا التصرف .. يعد من أساسيات الأديان السماوية ، والدين الإسلامى .. دين معاملة ، وسيدنا رسول الله ﷺ قال : « **من غشنا فليس منا** » ومثل هذا التصرف لا علاقة له بالتكنولوجيا والتقنية والعلم ، ولكنه سلوك نشأ عليه وأصبح أسلوب الجماعة ، وانتقل إلى الدولة ، وفى معظم الدول الإسلامية يفتقد الكثيرون هذا السلوك الذى يعد أحد أساسيات الدين الإسلامى .

إذن .. الحضارة الغربية التى تشد أنظارنا جميعًا ، ونتلهف عليها ، ونطير إليها سعداء .. ليست فى إطلاق الرغبات والشهوات كما يتصور البعض .. إنها وليست الحضارة الغربية وحدها .. بل أى حضارة محترمة ، هى فى مفهومها العام سلوك ونظام وقيم ومعان ، وأسس ومبادئ ، ومنظومات وطبيعة حياة !

والحضارة الإسلامية فى صدر الإسلام قامت على هذا المفهوم العام ، ولذلك صمد الإسلام فى بداية الدعوة وانتشر فى الجزيرة العربية وعبر البحور والمحيطات .. وغزا جميع دول العالم ، وأصبح هناك مسلمون فى كل مكان، وللأسف عشنا على هذا التراث ، وأفرطنا فى التغنى به ، والتزمنا فى خطواتنا .. ليس بالمضى إلى الإمام .. ولكن الإصرار على الاستمرار « محلك سر » وربما خطوة أو خطوات للخلف .. ولذلك نرى العالم يتقدم حولنا . ونغمض أعيننا لحظات ثم نستيقظ من الغفوة . ونفاجأ بأننا تخلفنا أكثر .. ولا يوجد أمامنا سوى الانبهار بالعلم والتكنولوجيا والتقنية . ونضطر مع هذه الظروف إلى التغنى بأمجاد الأجداد وغزوات الأسلاف .. وهذا رد فعل مباشر للانبهار الذى يصيبنا ! وإصرارنا على التمسك بالأطلال التى نجلس عليها فى ساحات الفخر البالى ، والحماس المتهرئ ، ومواقع التراخى والاستسلام لأحلام الماضى واليأس المريح !!

أقول هذا لأن هناك أفرادًا فى هذا المجتمع أداروا ظهورهم لنا ولك ،

وابتكروا ظواهر غريبة جدا على المجتمعات المصرية والعربية والإسلامية كما أنها لا تمت بصلة للمجتمعات الغربية والأمريكية .. إنها ظواهر أقرب للجنون ، وأشبه بالمرض الخبيث الذى إذا أصاب الجسد .. فقل عليه « عليك رحمة الله » !!

إننا يجب أن نتخذ موقفًا صريحًا وواضحًا ضد هذه الظواهر الغريبة على المجتمع المصرى ، خاصة أنها فى بدايتها ، ومثل هذه الظواهر لا تقع تحت دائرة الحرية المكفولة لكل شخص ، لأن الحرية لا تعنى الإساءة إلى الآخرين أو إزعاج الغير بمثل هذه التصرفات !

وإذا كنا غير قادرين على محاكاة الغرب فى التقدم والعلم والتكنولوجيا .. فهذا لا يعنى أن نبتكر ظواهر غريبة جدا عنا حتى يقال إن هناك اختراعًا أو انفرادًا أو يقال « المصريين أهمه » .

إن التقدم والعلم والتكنولوجيا لا تمنح لشعوب غير قادرة على التعامل معها بالمفهوم الصحيح ، ولا تنقل فى زجاجات وأجهزة ومعدات ، إننا يجب أن نعيد النظر فى أسلوب حياتنا ، ويجب أن نعيد إحياء الأرض التى أهملنا رعايتها .. وهذه الأرض إذا أعددناها جيدا .. فسوف تصبح صالحة للزراعة ، وتصبح صالحة أيضًا لنمو بذور العلم والتكنولوجيا والتقدم .. والأرض التى أقصدها هى الإنسان المصرى .. وهو وحده القادر على إعادة صياغة الحضارة المصرية للحاق بالأمم المتقدمة] ا. هـ .

سمع الداعية من يقول لصاحبه : إن التصوير .. حرام .

فقال له : ألا ترى وجهك فى المرآة !!

ثم .. إن العلم ثبت الصورة فيها .. فبهت الذى أفتى !!

قال صاحبى : أما عندك ما تقوله تعليقًا على هذا الموقف ؟!

قلت : الحكم بالحل . . والحكم بالحرمة شيء خطير . وقد تجرأ « المفتي » هنا على ما كان يتحرج منه علماؤنا . فقد كانوا لا يجرؤون على الإفتاء بالحل والحرمة بل كانوا يقولون عن الحلال : هذا جائز ، وعن الحرام هذا غير جائز .

ويخافون أن يحكموا . . بأن هذا حلال وهذا حرام !!!

• • •

obeikandl.com

الداعية والسلطان

كان لسلفنا الصالح وجهات نظر مختلفة . . فيما يتعلق بالسلطان .

قيل لسفيان الثورى : ألا تذهب إلى السلطان تأمره وتنهاه ؟

فقال : البحر إذا هاج . . من يسكّنه ؟!

ولأن الإمام مالك من أنصار . التردد على السلطان . . حتى لا يستأثر به مستشار خائن . . لأنه كذلك . . فقد فسر رأى سفيان بأنه يريد السلطان المتغطرس الشموس!

أما أبو حنيفة فقد كانت خطته البعد عن السلطان .

لأن السلطان . . من لا يعرف السلطان ؟!

المهم . . أنهم اختلفوا . . وأهم منه أنهم كانوا يتناصحون !

ورحم الله أيام زمان :

كان الناس يفعلون . . ولا يقولون .

ثم صاروا يقولون . . ولا يفعلون .

ثم أصبحوا اليوم لا يفعلون . . ولا يقولون !

جاءنى صديقى يسعى راغبًا إلىّ أن أكون شفيعًا له . . عند المسئول الكبير ليساعده فى الحصول على « هاتف » .

وقد ألبسنى من المديح ثوبًا فضفاضًا . . فتعثرت فيه . . ولابد أن أقف . . أعنى أن أتلعثم حرجًا من طول ما مدح !

وذهبت إلى المسئول الذى كنت أحبه . . لما تمتع به من فضائل أكدت دائمًا أنه رجل غريب فى دنياه . . فالمسافة بين قوله وعمله . . كما يقولون : تدخل الإبرة فيها بصعوبة !!

فى الوقت الذى كانت المسافة بينهما عند غيره واسعة واسعة : ترمح فيها الخيل !!

ودخلت عليه مكتبه .. وكالعادة كان موقفى منه موقف العاجز عن التعبير من حيث كانت اللغة أضعف من أن تنبئ عما فى الضمير من تقدير .. وكان موقفى معه على ما يقول الشاعر :

رأى الهلال فحياه بغيـــر فم أحلى التحيات أخلاها من الكلم !

وفى أيـام قلال .. كان الهاتـف عند صـديقى .. الذى طلـب منى أن أبلغ « صاحبى » شكره !!

وقلت له : المفروض أن تبلغه أنت .. فقال : لا أحب أن تكون لى صلة بمسئول ؟!!

وقلت له : وكيف رضيت لى .. ما لا ترضاه لنفسك !!

مع العلم بأنك ـ عن طريقى ـ كنت على صلة به .

هذه الصلة التى يشهد بها رنين الهاتف فى منزلك !!

ثم أين السنّة .. يا أهل السنة !!

أين سنة « القلب » دليلاً على سنة « القالب » !!

فالرسول ﷺ يقول : « **من أعطى عطاء .. فَوَجدَ .. فَلْيجْزِيه .. فإن لم يجد .. فليثن فإن من أثنى فقد شكر . ومن كتم فقد كفر ...** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن .

والثناء على فاعل الجميل مقدور عليه ميسور : قال ﷺ : « **من صُنع إليه معروف فقال لفاعله : جزاك الله خيراً . فقد أبلغ فى الثناء** » رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب .

ولقد كان من أهمية شكر من أسدى إلينا معروفًا أن كان ذلك سبيلا إلى شكر

الله عز وجل .

وذلك قوله ﷺ : « **إن أشكر الناس لله تبارك وتعالى أشكرهم للناس** » رواه أحمد ورواته ثقات .

وهكذا يعلمنا الرسول ﷺ صناعة الوفاء ، الوفاء : الذى هو إدام المجتمع المسلم .

ولكن بعض الناس ـ سامحهم الله ـ يستثنون من هذه القاعدة من كان مسئولاً!!

ورضوا بأن يكونوا للنكران مثلا . يقال فيه : إن فلانًا كتاب فى نكران الجميل . . لا يجد الناس منه إلا نسخة واحدة .

وإذا كان الوفاء : وإذا كان رد الجميل فى الإسلام غير ملوّن . . فإن هؤلاء يسيئون إلى الإسلام ، حين يجعلون الوفاء تابعًا لهواهم .

على ما قيل : إن يوم النصر يجوز فيه ما لا يجوز فى غيره وكذبوا فيما قالوا فإن المرأة التى تزل يوم العيد كالتى تزل يوم المأتم .

والناس يزدرونها من غير أن يسألوا عن تاريخ زلتها ؟!

وفجأة دَهَمَنا الفتى عائدا لتوّه من معركة بينه وبين مسئول جاء له فى أمر . . ثم علا بصوته فوق صوته . . وانتصر عليه ؟!

ولقد صادف هوى فى نفس صاحبى ناكر الجميل . .

ثم أخذه . . ومضى . . مضى به إلى المسجد . . ليؤديا صلاة لم تحقق نتائجها فى واقع الناس .

ومضيت أنا إلى تاريخنا المجيد . . أبحث عن بعض المواقف التى كان فيها العلماء والأمراء على أوفى ما يكون التكامل . . والتجانس . .

ولقد وجدت فى هذا الباب ما يشفى الغليل . . والعليل .

لقد حفل ماضينا بالرجل الخيّر . . والرجل الشاكر فكانت الحياة بهما رخاء .

على ما يقول شوقى :

وإذا الدنيا خلت من خـــيِّر وخلّت من شاكر هانت هوانًا !

نماذج وصور

لقد حفل تاريخنا الإسلامى بنماذج من هذه المواقف الشاهدة بما يؤكد تحقق مصلحة الأمة إذا التقى الحاكم والمحكوم . . وكيف كانت الحكمة سيدة الموقف . الذى يسفر فى النهاية عن خير محقق ينعكس على المجتمع كله : أمنا ورخاء .

كيف ندعو السلطان

فى « قنا » سألنى طالب من جامعة « جنوب الوادى » عن سر سكوت العلماء ، إزاء المنكرات ؟ قائلاً : أين غضبتهم . . المضرية ؟!

وسكت الطالب ، وإن بقى فى صدره « أزيز » ثورة مكتومة !

وحاولت أن ألطف من حرارة الصعيد فى كيانه فقلت له : أولاً : ما زال العلماء يتكلمون . . بدليل محاضرتى لكم !

ثم إنهم بعد الاتفاق معكم على أن « الإسلام هو الحل » لكن الخلاف فى الواقع . حول كيف يكون الحل : ومن رأيى .

وهذا ثانيا : أن الحاكم من ورائه جيش . . وفى يده أموال . . وأنت من ذلك صفر اليدين .

وإذن فالإمكانات غير متكافئة . . ونحن على ما يقول الشاعر :

لا خيل عندك تهديها ولا مال فليسعد النطق إن لم يسعد الحال

وإذن . . فاللين . . فالحوار . . وليست الثورة هو سبيلنا إلى الإصلاح .

والأمر على ما قيل : [الدعوة إلى الله بطريقين : طريق اللين . . فهى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . وإيضاح الأدلة فى أحسن أسلوب وألطفه . فإن نجحت هذه الطريق فبها ونعمت . . وهو المطلوب . وإن لم تنجح تعينت طريق القسوة بالقوة حتى يُعبد الله وحده . وتقام حدوده . وتتمثل أوامره وتجتنب نواهيه . وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد: ٢٥] .

ففيه الإشارة إلى إعمال السيف . بعد إقامة الحجة . فإن لم تنفع الكتب تعينت الكتائب والله تعالى قد يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن] [١] هذا : إذا كان المدعو عدوا مؤذيًا مع الأخذ فى الاعتبار ما يلى :

[يشترط فى جواز الأمر بالمعروف ألا يؤدى إلى مفسدة أعظم من ذلك المنكر لإجماع المسلمين عى ارتكاب أخف الضررين . قال فى مراقى الصعود :

وارتكب الأخف من ضررين وخير من لدى استوا هذين

ويشترط فى وجوبه : مظنة النفع به . فإن جزم بعدم الفائدة فيه . لم يجب عليه كما يدل له ظاهر قوله تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى ﴾ [الأعلى: ٩] .

فإن كان المدعو ذا سلطان . . فيشترط لأمره :

١ ـ القدرة على نصحه . . من غير حصول ضرر أكبر . .

٢ ـ ولكن بالحسنى . . وإن لم يقدر . . فينصحه بقلبه .

٣ ـ فإن رضى بما يعمل السلطان . . فهو شريكه فى الإثم . .

وعندئذ تنتهى مهمة الداعية . . وبلا إراقة دماء .

وإليك بعض الصور :

شتم هشام بن عبد الملك رجلا . . فعاتبه الرجل قائلاً : تشتمنى وأنت أمير

(١) أضواء البيان (٢/ ١٧٥) .

المؤمنين ؟!

فرد عليه الخليفة : سامحنى .

فقال الرجل : لا . . لا أسامحك .

فقال الخليفة : هبها لله .

فقال الرجل : هى لله . . ثم لك .

وقد يظن المتعجلون أن الرجل هنا تضعضع أمام السلطان . ولكن نتيجة هذا العتاب تثبت أنه كان فى أفضل حالاته !

فقد كان لثباته وأدبه أثره حين أعلن الخليفة قائلاً .

والله . . لا أعود لمثلها أبدًا !!

وهكذا . . نجى الله الخليفة . . بل ونجى المجتمع كله من شر مستطير . . بهذه الحكمة البالغة !!

قال الخليفة لشاعره « وكان أسود » : اشرب كأسا معى . .

فاعتذر الشاعر قائلاً :

لستُ بذى حسب ولا نسب كما وأنى لستُ قريبك

ولكنى بأدبى وعقلى اقتربت منك . . فكيف تسلب عقلى بهذه الكأس ؟!

وكان من الممكن أن « يخجل » الشاعر من سيده الخليفة . . ويجامله .

لكنه آثر رضاء الله على رضاء الحاكم . .

والمهم : أنه لم يدخل معه فى مواجهة مباشرة ولكنه المنطق المعقول . . المسكت !

والشعراء على الطريق .

هجا أبو الهول الحميرى الفضل بن يحيى . . ثم أتاه . . راغبًا إليه . . فقال

له الفضل : ويلك !!

بأى وجه تلقانى ؟!

قال : بالوجه الذى ألقى به ربى . وذنوبى إليه أكثر ؟

فضحك . . ثم وصله !

وهكذا . . وبالمنطق الحكيم يعود الشاعر إلى أهله :

أ ـ بحياته .

ب ـ ثم بالمال . . .

بالليل.. نحقق آمالنا

قال الرجل يستعطف الخليفة :

[ولم أظلم معنى بالتحريف ، ولا ملت فيه إلى التحوير ؛ وأرجو أن يبيض وجهى عندك بالرضا عنى ، فقد كاد وعدك فى عنايتك يأتى علىّ ، وأنا أسأل الله أن يحفظ عنايتك على ، كسابق اهتمامك بأمرى ، حتى أملك بهما ما وعدتنيه من تكرمة هذا الوزير الذى قد أشبع كل جائع ، وكسا كل عار ، وتألف كل شارد ، وأحسن إلى كل مسىء ، ونوه بكل خامل ، ونفق كل هزيل ، وأعز كل ذليل ، ولم يبق فى هذه الجماعة على فقره وبؤسه ، ومره ويأسه ، غيرى ، مع خدمتى السالفة والآنفة ، وبذلى كل مجهود ، ونسخى كل عويص ، وقيامى بكل صعب ؛ والأمور مقدرة ، والحظوظ أقسام ، والكدح لا يأتي بغير ما فى اللوح .

خلصنى أيها الرجل من التكفف ، أنقذنى من لبس الفقر ، أطلقنى من قيد الضر ، اشترنى بالإحسان ، اعتبدنى بالشكر ، استعمل لسانى بفنون المدح ، اكفنى مؤونة الغداء والعشاء] اهـ .

المجاملة الفاعلة :

وعندما دخل كثير عزة على « عبد العزيز بن مروان » فى مرضه فقال : [لو

أن سروركَ لا يتم إلا بأن تَسْلَم وأسقم .. لدعوت ربى أن يصرف ما بك .. إلىّ.

ولكن أسأل الله لك ـ أيها الأمير ـ العافية ولى فى كنفك النعمة] .

فضحك الخليفة .. وأمر له بجائزة .

ولقد ذهب « كثير عزة » إلى قصر الخلافة .. وهو « كثير » وعاد وهو كثير أيضًا .. ولكن بمزيد من العطاء ..

ومن صور اللين :

السيف .. فى موضع السيف

وفى مرحلة من مراحل الكفاح .. قرر الإمام الحسين رضى الله عنه أن يواجه خصومه بالسلاح .. على رغم أنه كان فى فئة قليلة .. بينما السلطان صاحب عدة وعدد .. فعرض نفسه ورجاله لموت محقق ..

وقد نقده « ابن خلدون » حين قرر أن ذلك إلقاء للنفس فى التهلكة .

ولكن « عبد الرحمن الكواكبى » ينتصر للإمام الحسين حين انتصر له ولأمثاله مقررًا : [أنهم معذورون لأنهم يفضلون الموت كرامًا على حياة الذل التى كان يحياها ابن خلدون ! ولقد كانوا فى ذلك ككرام سباع الطير والوحوش التى تأبى التناسل فى أقفاص الأسر !!

ثم تحاول الانتحار مخلصًا من قيود الذل] .

إنها تحرم على نفسها متعة التوالد .. مشغولة بقيمة الحرية .. التى تتمناها .. فإن لم تجدها .. لم يعد للحياة معنى .. ومن ثم تقرر الانتحار !

ألا وإن (الهرة إذا حُبست وضويقت .. انقلبت لبؤة .. والبركان إن سُدت فوّهته .. كان الانفجار ... والشعب إذا استذل .. ثار .. فالنار ولا العار وللشهداء عقبى الدار] ا. هـ .

شجاعة المرأة العجوز

كانت المرأة « العجوز » تكثر من الدعاء للحاكم المستبد فلما أرسل يسألها عن سر ذلك . قالت : أدعو لك بطول البقاء . . لأنك إذا متَّ لن يأتى بعدك من هو شر منك !!

وهى قصة المريض : فقد حط الذباب على جرحه . فامتص دمه فلما جاء من يطرده . . منعه المريض قائلاً : إن هذا الذباب شبع من دمه . . فلن يشرب بعد ذلك .

أما الذباب الجديد . . فإنه لم يشرب . . ولكن سوف يشرب !

وتأمل موقف العجوز البدوية . . وكيف كان منطقها أقوى وأبقى ! على ما فيه من قسوة حازمة .

الاحتيال فى مواجهة الرجال :

وذات يوم : كان « الخليفة » يعاف دواء « الإسهال » ويرفض تناوله . . وفكَّر العالم . . فرآه يحب « العنب » .

وفى بستان الخليفة . . حقن شجرة عنب بدواء الإسهال . . فلما أكل الخليفة من العنب شفى بإذن الله .

فلماذا لا نتحايل فى الدعوة هكذا . . وبخاصة مع رموز المجتمع الذين يهتدى بهدايتهم خلق كثير ؟!

كان رجل نصرانى يختلف إلى الضحاك بن مزاحم .

فقال له يومًا : لو أسلمت ؟!

فقال الرجل : يمنعنى من ذلك حبى للخمر .

قال له : فأسلم . . واشربها !!

فأسلم . فقال له الضحاك : إنك قد أسلمت .

فإن شربت الخمر . . حددناك .

وإن رجعت عن الإسلام . . قتلناك . . وإن زنيت . . أقمنا عليك الحد بالجلد .

• • •

البرهان .. سيف قاطع :

تعلم الخليفة بالباطل . . ثم قال لرجل فى المجلس : لم تسكت ؟

قال : يدخل الرجل على السلطان بدينه . . ثم يخرج بدونه .

أخشى الله . . إن كذبتُ وأخشى بطشك . . إن صدقت !!

ولقد صدق الرجل مع نفسه ومع الخليفة . . فنجاهما الصدق : نجى الخليفة من الظلم . ونجى الرجل من الهلاك .

منطق بعض الحكام :

قيل لهرمز : [أى خطأ رأيت من وزراء أبيك . . حتى أمرت بسجنهم جميعًا؟ فقال : لم أعلم خطأ يوجب حبسهم . ولكنى عرفت أن مهابتى فى قلوبهم لا حد لها . ولا يعتمدون كلّيًا على عهدى . فخشيت أن يعملوا على إهلاكى . . من خوف إيذائى لهم . . فعملت بقول الحكماء حيث قالوا : خَفْ ممن يخاف منك أيها الحكيم . وإن كنت تفوق مائة مثله فى الحرب . لهذا تلدغ الأفعى قدم الراعى . . إذ تخشى أن يدق رأسها بحجر !

ثم قال : [ألا ترى أن القطّ حينما يصير عاجزًا عن الخلاص . . يقتلع بمخالبه عين النمر] ؟!

• • •

الحكمة فى مواجهة الطغاة

يقولون : اثنان لا يتهاونان دقيقة : شبح الضحية . . والضمير المذنب .

وقد يبدو الرجل « ثائرًا » : يبدو فى أول الأمر طيبا . . مخلصًا . . ولكن : لأنه عسكرى . . فخبرته بالسياسة ضيئلة . . ومن هنا يتورط فى أخطاء .

فلا يجد إلا السلاح لحلها : وهنا يتحول إلى طاغية متكبر « دكتاتور » .

وهكذا يتنامى معنى الطغيان فى قلب الحاكم . . ولكننا بتصرفنا نستطيع أن نعلّم أظافره . . بالذكاء والاحتيال . . ويكفى الله المؤمنين القتال .

طاقة القلوب أقوى :

وقلت لصاحبى : إن الضرب باليد : من عمل الجوارح . . وينصب مفعولاً واحدًا .

والظن . . وهو من عمل القلب . . ينصب مفعولين اثنين . .

ورأى البصرية : تنصب مفعولاً واحدًا . . بينما رأى العلمية . . تنصب مفعولين .

وإذن فالأمر . . أمر قلوب . . لا أمر جوارح . .

لأن طاقة القلوب أقوى . . وأمضى . .

والموفق حقا من تعامل مع القلوب . التى يُقاد منها الإنسان . . ولا يقاد من أذنه ولا من يده .

أما بعد :

فنعوذ بالله أن نكون من هؤلاء : الذين يذمون السلطان وهم أقرب الناس إليه .

إنهم بطانته . . حاشيته . . بل مستشاروه .

يذمون الدنيا . . وهم يرضعونها . .

يتميزون بشارة معينة .

يضمرون البدعة . . ثم يموهون بلحاء من الحق فوقها . . ومنهم ذلك الكاتب .

روى أن رجلا قال لعطاء : مزهوا بأخيه الكاتب .

إن أخي يضرب بقلمه . . ولا يعدو رزقه . فقال له عطاء : وأين الرأس ؟

يعني : من الذى يكتب له ؟ فقال : خالد بن عبد الله القسرى !

فقال عطاء : فأين قول موسى . . فيما حكاه القرآن ﴿ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴾ [القصص:١٧] .

والمعنى : إن القلم فى يد أخيك . . ولو كان من ذهب . . فلا قيمة له . . ما دام يمكِّن به للباطل !!

• • •

obeikandl.com